بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 51 **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة لقمان**

التاريخ:18\14\2022 م **كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني**

كنا نتكلم سابقاً عن قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ ما فِي الأرض مِنْ شَجَرَةٍ أقلام وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيم﴾.

معظم البحث في هذه الآية قد تقدم، والنتيجة النهائية: أن الباري تبارك وتعالى يريد أن يبين في هذه الآية عظمة آياته تبارك وتعالى كماً وكيفاً، ولإثبات هذه العظمة استعمل وسيلة متعارفة عند الناس، وسيلة الإحصاء عند الناس آنذاك بالقلم والدواة والورق[1]، فذكر لهم مثالاً من هذا القبيل.

وفي العادة الإنسان الواحد بقلم ودواة يكتب إلى ما شاء الله، ويدون ما شاء الله من أمور، فكيف إذا تعددت الأقلام، وكان المداد الذي يكتب به بهذه الأقلام بمقدار البحر الذي لا نعرف عمقه ولا نعرف وسعه، وكيف إذا أضفنا إليه من مثله تخيلاً عدداً كثيراً؛ لأن سبعة أبحر تدل على الكثرة، فحينئذ تثبت عظمة آيات الله تبارك وتعالى، وأنها خارجة عن الإحصاء، كيف والله عزيز حكيم.

هذا كان البحث في الآية السابقة، مباشرة في الجديدة يقول: ﴿ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِير﴾.

في هذه الآية توجد محطتان رئيستان:

المحطة الأولى: ترتبط بالسياق، ما ربط هذه الآية بما تقدم.

المحطة الثانية: ترتبط بتذييل الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِير﴾.

---

[1] ربما لو في زماننا ربما كان ذكر الهارديسك وما شابه ذلك.

فإن هذا التذييل واجهته مشكلة، أنه دائماً في القرآن الكريم يختم الآيات بصفات الباري وأسمائه بما يتناسب مع مضمون الصدر، أي: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزاءً بِما كَسَبا نَكالاً مِنَ اللَّهِ﴾[2] فلا يمكن أن تقول: إن الله غفور رحيم، فلا يتناسب مع القتل، يتناسب مع ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عزّ فحكم.

فهذه التذييلات في القرآن الكريم لابد أن تتناسب مع صدرها، من هنا جاءت المشكلة: أن صدر الآية بيان لقدرة الله، أن الله تبارك وتعالى كيف يخلق هذا الجمع الغفير؟ وبعد أن يخلقهم كيف يبعثهم ثانية وقد تناثرت أشلاؤهم وربما تداخلت كما في شبهة ابن كمونة؟ فكيف يقدر على ذلك؟ فكان مقتضى التناسب أن نقول: إن الله قوي قدير أو إن الله على شيء قدير وما شابه ذلك من الأسماء والصفات التي تدل على قدرته. وقد يقال: لا يتضح لنا التناسب بين صدر الآية بهذا المعنى وبين قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

فإذن لا بد أن نتحدث في هاتين المحطتين، واقتصرت عليهما لأجل الترابط الكبير بينهما، أي: إذا فهمنا السياق وفهمنا الربط السياق سنفهم لماذا قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ولا يتناسب إلا هذه الجملة.

في الآيات السابقة تحدث عن الآيات المثبتة لخالقيته تبارك وتعالى ولربوبيته ومدبريته، وكانت واحدة من الآيات: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ ومعنى ﴿وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أي: يوجد حساب، أي: يوجد قيامة، وبالتالي يعني يوجد بعث، ثم بعد ذلك قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني يوجد بعث وحساب، الحساب يحتاج إلى علم للقاضي والحاكم وكل ما يصب من صفات في هذا الإطار.

---

[2] المائدة 38

هذا الذي تقدم صار مظنة وموردا لأن يتعجب منه، أنه كيف يمكن ذلك؟ أن يحاسب هؤلاء الخلق بأجمعهم؟ ويبعثهم ويقفوا بين يديه ويؤاخذ كل واحد منهم على ما فعل في هذه الدنيا؟ هذا الشيء لا يمكن للعقل العادي أن يتصوره.

فجاءت هذه الآية المباركة لتدفع هذا التوهم وهذه المظنة؛ لتثبت في البداية قدرة الله تبارك وتعالى عن طريق قياس واضح، وهو أن هؤلاء الذين يريد أن يبعثهم الله أليس هو الذي خلقهم؟ المفروض أنكم في آية سابقة اعترفتم بأنه هو الذي خلقهم، الذي يستطبه أن يبدع من العدم يستطيع أن يبعث من مات؛ لأن الموت ليس عدماً بالمعنى الفلسفي، فهذا أمر من ناحية القدرة واحد؛ لأن الوحدة والكثرة عند الله تعالى على حد سواء.

والتعبير كما في بعض كتب التفسير بأنه كما أن خلق الواحد وبعثه سهل، فخلق الكثير وبعثه سهل، أصلاً في حق الله ما في سهولة ولا صعوبة ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[3] فهذه كنْ التي يترتب عليها فيكون لا يفرق فيها بين الواحد والكثير، ما عندنا إلا أمر تكويني واحد، نخرج من الأجداث إلى ربنا، ما عندنا أوامر متعددة وتكلفة وشيء حتى نصفه بالسهولة أو الصعوبة.

والبعث المرتبط بالآيات السابقة الذي يقتضي الحساب، قلنا: يحتاج إلى سميع عليم؛ لأن قدرة الله اعترفتم بها، وإنما حساب من يبعثهم يحتاج إلى أن يكون سريع الحساب، يحتاج إلى أن يكون بصيراً بخلقه، عليماً بأفعالهم قبل أن توجد وبعد أن وجدت، فمن كان هذا صفاته لا يتعجب منه أنه كيف يستطيع أن يبعث الخلق ويحاسبهم ويحصي ما فعلوا في هذه الدنيا وهم فوق حد الإحصاء، ليس ذلك إلا لأن ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ الذي ترجع هاتان الصفتان إلى كمال العلم بناء على ما حقق في علم الكلام من أن صفاته عين ذاته، فهو سميع بصير من حيث هو عليم.

فعلى هذا الأساس يكون هذا التذييل شبيه بالتذييل المتقدم، وهو قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ لكون القضية ترتبط بالحساب. فإذن هذا الذيل مناسب تماماً لما جاءت الآية لإفادته حسب ما يدل عليه السياق، فنكون بهذا الكلام الواحد قد بينا كلا المحطتين، البحث السياقي والسبب في هذا التذييل.

---

[3] يس 82